كائنات صغيرة في وطن يموت

★★★★★★★★★★★★★★★★★★★ لوحة قصصية بقلم : محمد علي فرحات

١ ـ اوهام خجولة :

الليلة يندم . يمسك بخيط الخيبة حتى طرف الجنون . يصاب بالعي عقله الليلة . ما يلبث ان يفصح الى الداخل ثم يطفح من الفم ، تلهج الألسنة التي اثقلتها الحكمة الباندة ، وتاتي ساعة التخلي : استاذ المنطق يحمل عصفوره ويغرد « يشخط » العصفور ثم تتلاطم الاصوات في فمه الذهبي ، تسقط بقع من الدم على رصيف « الحمراء » .. الصحافي يطلق ثلاثا لغته القديمة ، لديه كان يتتالى الكلام محدودبا ناغما ، رفّ حجل فريد الرماد . الصحافي يقدم سلطة الكلام الجديد : كبة نية ،برنامج مرحلي، بيان استراتيجي ، اعلانات مبوبة ، اوهام شعرية . لعبة برلمانية ، خطوط للتماس ، نقاط للارجوع . فعل الامر « استقل » دون تحديد للفاعل المستتر أهو العالم او الرئيس او الله او الطفل الذي يهم بالولادة ؟

الليلة يندم . ينتشر هباء الكلام . لو شعرة بين الغي والحق . لو شعرة توصل لقال عاليا ما يهمسه واعلن الوطن . ليس عقلا شمعيا ما يفكر ، ليس جسدا شمعيا جسده ، وكم هو عاطش الى ماء الوطن القدسي : اينما وقع فعلى خطأ وكيفما قام فان له قيامة الماخوذين بحدّ المدية ، طبول الرعب تقرع وهو اضاع الطريق . احترقت خلفه مراكب العودة .

يا طارق الشجاعة لماذا استقلت في هذا الزمن ؟

الاشياء ما عادت الاشياء . المخلوقات كلها تمارس لعبتين ، اولى للجهر وثانية في المخادع . من انت ؟ . تكاد تنسى لكثرة ما راوحت بين المواقف الرسمية والمواقف الخاصة ، واذا قررت اخيرا فهو القرار الهام: رقم أحمر تعلقه على ظهرك وتؤمن خط الاوتوبيس المستحيل بين بيروت وبيروت .

علي يخزن اوهاما ساخنة لايام الشتاء ، يجمع هنيهات اليقين لساعات التخلي . منى تهرق دمعا امام المرآة ، ترى خلل اللمعان بريق مرج تنسحب عليه الوان الزهر . بين الحائط والمرآة تجلس منى ، ترسم بحرا جبلا على منديل الورق . يأتيها طيف الذي اختار منفاه في عالم الانكلوسكسون . تدخل منى في منى ،تتحصن، تقفل باب الذاكرة ، تسدل الستائر على الايام القديمة .. وتأتي ليلة ، يا ذات ليلة باردة ، تموت الاميرة في الفلعة . ويحمل ساعي البريد كلمة رثاء عقلانية كتبت بلغة اجنبية .

٢ ـ القمح السكري :

أحضروا القمح المحلى لزيارة الموتى هذا الصباح. قبل بزوغ النور نزيح من طريقنا الضباب والندى المتطاير . باكرة زيارة الموتى ومقدس ترابك يا ارض، ايتها الام . يا ذات الابناء العاقين.

القمح السكري أحضروه ، القبور البيض في نهود التلال تنتظر (نحن على عجل) قبل ان ينشق النهار عن دوي المدافع وباعة الكلام والجرائم الملفعة بالذرائع الوردية .

ذوات الوجوه النورانية يتلفعن بالابيض، يتوحدون وغبش النور الاول . امينة تحمل جرة القمح ، تنثر الحبات فوق الشواهد :

يا زائري لا تنسني من دعوة لي صالحة
ارفع يديك الى السما واقرأ لروحي الفاتحة

ترفع امينة وجها الى السماء ، واليد تنثر على الارض الحبات (قال الشيخ ان فعلها من ثرّهات الاولين) رددت النسوة حكايات الاسلاف عن رغبات الموتى : القمح المحلى بالسكر ، لتخصبه التربة وينبت الى الاعماق . القمح المحلّى لتنقده العصافير وتعلو الى السماء اجنحة قريبة من روح الكون العظيم .

● هل شهدت تبدل الفصول واحسست نبض الارض في ارتحال النبات واقبال البذور ؟

ـ انني مواطن منذ اكثر من عشر سنوات .

● أنمت ذات صيف في عرزال الوزال ، ونشرت

ثياب أطفالك على العوسجات ونصبت المطافح لعصافير الخريف ؟

ـ أنت غبي وثرثار ، ماذا تخبىء في برذعة حمارك؟

ما خف حمله وغلا ثمنه .. وفكرت امينة كيف لها ان تحمل التراب وشواهد القبور .

ـ اسرعي ايتها الفلاحة الحمقاء ، لا مكان هنا للمدنيين ..

سارت قوافل المهجرين ، سراعا كانوا يعبرون الكوابيس الصغيرة نحو نابوس الشمال الاكبر . لم يفتشهم احد . كان بشار الصغير يهرّب في جيبه حفنة من التراب . قال سيصنع منها قرصا يضعه تحت جبهته وقت الصلاة . كان يحس انه سيصلي في ارض بعيدة خلف البحور السبعة .

وصلوا الى مدينة بلا وجه . بالايماء تحادثوا مع سكان بلا لغه .. تذكروا امينة التي تخلفت في عالم اثير ولا يتسع للمدنيين ، شاعت سيرتها على السنة المهجرين .

قالوا وقالوا وتفولوا انها بنت غرفة من شواهد القبور واعتصمت بالموتى . تطلعت الى أرض تحترف واحست نبات القمح السكري ، يخصب الى تحت ، الى مدينة الموتى الترابية .

بشار الصغير كتب عن امينة اولى انجازاته ، كتب ماده اضافية في شرعة حقوق الانسان :« للموتى الحق في سكنى قبورهم دون اية موانع ، وتعتبر باطلة عقود البيع الخاصة بالمقابر . ويحق لاقارب الموتى ان يسكنوا فوق القبور ، ويدفنوا في غياهبها دون اية موانع ، ومهما تبدلت السلطات الزمنية » .

٣ ـ هيلانة الميلاد :

موكب الصوت والايماء يرتل لراحة الموتى ليلة الميلاد . قطط الارض المهجورة ترفع برؤوسها الى السماء ، تصعد اصواتا في الليل وتبحث عن قمر يضيء بين منفرجات الغيوم السود .

العجائز في بيوتهن يبللن دموعهن بالقطن ، يتسللن بغزل الاوشحة . أشباح الحانات تلوح بمناديل الدخان ، والرجال الذين اضاعوا ظلالهم تحت المصابيح ويعودون في لحظة الدمع ، يعانقون الحقيقة الحزينة، ثم يغيبون في مدى الشارع البحري .

العذراء هيلانة ماتت ليلة الميلاد .

كانت الاجراس ثقيلة ، وحبل الكنيسة لا يطاوع الايدي المصبغة بدم الصدّيقين .. العذراء هيلانة تسمع من مضجعها صوت الموكب الفريد يرتل لراحة الموتى .

التجربة الاخيرة كانت حقيقية . اوقدت شمعتين على جانبي السرير ونامت . تغطت بالابيض وماتت هيلانة .

هي المرة الاولى ، ترتاح العذراء التي جربت وما جربت عبر سنوات البحر والشمس والنار .

فارس الاحلام النمساوي مات من فجر عمرها ، السيف غطته الثلوج ، والياقات المنشاة اتشحت بصفرة الخريف في غابات اوروبا القديمة .

الزمن البطيء اسرع من خطوه وبدات الاشياء تفقد حميميتها .. تهرب هيلانة الى الثبات الجميل الى البحر، حيث بيروت تمتد شوارعها البحرية تؤالف على ارصفتها كل الالوان ، تسكن تحت سطح القرميد امم، وعلى ادراج البناء الواحد تتناغم حروف اللغات .

هيلانة تعانق مدينة الزمان البطيء ، تقرأ بكل اللغات ملفات الانتظار .. الزبد يحكي على الشاطىء اخبار رحلته الطويلة ، يستريح على الرمل ويبلل قدمي هيلانة .

(البرنامج الخارجي للعذراء :)

ـ ابتسامة للضوء المقدس .
ـ تحية الصباح للشاعر الآتي من الجنوب .
ـ قطع اللحم للقطط المتشردة .
ـ سحب السلة والحصول على الخبز وصحيفة الصباح (بالفرنسية)
ـ القهوة بالحليب
ـ فاصل من صلاة الوعي .
ـ الذهاب الى الدكان .
ـ استطلاع الاخبار الخاصة من عجائز الحي .
ـ الغداء .
ـ القيلولة .
ـ زيارة الشاطيء .
ـ ممارسة التبصير بورق اللعب .
ـ الموسيقى حتى منتصف الليل .
ـ طوارىء الاحد : زيارة الكنيسة .

(البرنامج الداخلي :)

ـ حوار مع الاشياء والزمان .
ـ رحلة مستعادة الى الطفولة .
ـ تفصيل المحدودات ونشرها في المطلق .
ـ زمن احتياطي : للذاكرة وحكايات القطط وصوت الامواج وتشكلات الافق الغارب .

الكلاب تعوي قبيل الزلزال ، لكن قطط بيروت المتشردة تموء قبل الحرب ، وحين كانت هيلانة ذات صباح ترمي بقطع اللحم فهمت النذير واستعدت للاتي: تحصنت هيلانة في بيتها وجمعت مؤونة لحرب قاسية .

البحر القريب ابتعد ، وبيت هيلانة صار في مدينة داخلية ، تغيرت جغرافية الساحل ، وهيلانة الداخل تعرف ان الانسان يفصل عالمه كما يريد : يدفأ في الشتاء ويرتجف في الصيف بردا ، يسبح في الصحراء ويبحث في مدن الشواطىء الخصيبة عن الواحات .

تعتذر هيلانة لنفسها : الانسان يفصل عالمه لا كما يريد بل كما يسمح له أن يريد ، وهيلانة رسمت حجمنا وشباكا للمراقبة وجلسة للانتظار :

رأت مدنيا يموت على الرصيف ، صحفا تصرخ ، وجوها تمتلىء حماسة ثم تصفر من الخيبة ،اسلاكا شائكة توضع بين الرأس والساعد بين اللسان والكلام، حدودا ترسم على جسد جريح وايام للتآكل السريع .

رأت عملة جديدة تقلبها الايدي ، وجها للهزيمة وآخر للنصر ، ورأت هيلانة زمنا يتسارع ايقنت ان بيروت تغير جلدها وانها تدخل في جحور الطلاسم .

كان الشاعر يزداد فشلا ويحترف الكذب،والعجائز يرحلن الى مدن السلام والسرعة .. البحر يلملم أمواجه والزبد ، يرحل تاركا خلفه صخورا جارحة ، وهيلانة تنتظر وتنتظر .

وحين اشتدت الرياح الحارة تحولت المدينة الى اطلال بائسة وتافهة ، هدأت المدينة ووقفت هيلانةعلى الشرفة لتسمع مجددا نذير القط .

انتظرت العذراء ، كحلت عينيها بالضوء ، مارست برنامجها الداخلي بادمان شديد .

هي ليلة الميلاد تقبل ، تتغطى العذراء بالابيض وتموت . شمعتان تذوبان على جانبي السرير ،وحبن الانطفاء تعود هيلانة الى طروادة .

٤ ـ الابيض :

« الابيض » كان أبيض الوجه مستديره ، مكسوا بالصحة الخجولة بما يكفي ليقال عنه ربع القامة مائل الى السمنة .

شعره تساقط مبكرا ، فبدت جبهته العريضة كسهل تغطيه ثلوج الشتاء الاولى .

حين يمشي لا تسمع وقع خطواته لانه ألف احذية المطاط ، فلا يتلاءم خطوه الساكن مع جلال حضرته لدى من يراه لاول مرة .

رجل له حضور السر وغياب الحقيقة ،وفي حالاته جميعا يبدو الصمت شعارا لا يجارى .

ولطالما تساءل عارفوه : في اي المواقف يمكن ان يتكلم « الابيض » ؟ انه حين يطلب الطعام يومىء او يثرثر بكلام هو الى الهمس اقرب .

لا يعرف احد من أين جاء . الذاكرة ترجع الى الرؤية الاولى : « الابيض » جالس الى صخرة الشاطىء يتطلع نحو الافق ، وفي الليل تضمه غرفة خراب من بقايا بيروت البحرية ، وبين النظرة الى الافق وساعات النوم يقوم « الابيض » بالخدمة في منازل الجيران ، ويكتفي بصحن من الطعام وحبة فاكهة ، وبين الحين والاخر البسة قديمة يستر بها جسده .

الاحد عطلة « الابيض » لا يعرف احد أين يمضيها. قال بعضهم انه رآه مصادفة مع امرأة عجوز يتحدثان رأسا الى رأس كأنهما يستعيدان سرا دهريا ، ولم يستطع اي من الجيران ذكر رؤية اخرى « للابيض » في عطلته .

.. يكبر اولاد الحي و « الابيض » على حاله ، تتعقد الهموم و« الابيض » على بساطته ، تكثر المشاغل على السكان و« الابيض » يحتفظ بوقته الرحيب ويواصل تأملاته في الافق البعيد .

تتقارب الآفاق ، تتآلف المسافات ، تتوحد الهموم الصغيرة في بؤرة الهم الاكبر ، تحتقن الوجوه كأنها تهم بالصراخ ، تتشنج الاجساد كأنها ستبدأ القفز الصعب .. و « الابيض » هادىء الوجه وضاح الجبهة، ينفذ النظام الدهري لزمنه الخاص .

وحين قام ما يشبه القيامة ، وكاد الانسان يلهو عن اخوته وامه وابيه ، انبتت ارض بيروت بارودا وسماؤها قنابل ، ولم يلتفت احد الى « الابيض » .

تهدأ الخواطر قليلا ويتراسل الكلام بطيئا وتتواصل العواطف هونا ويبدأ كشف الزمن القديم .

يلاحظ الجيران كما المفاجأة ان « الابيض » قد اختفى . أين ؟ لا أحد يدري .. ويكاد البعض يشكك حتى بمجرد وجوده السابق .. صار « الابيض » أسطورة ، وفي ليالي البدر التمام ، يبدو خياله على صخرة البحر يشرب حفنة من مياه المعادن ويتأمل في الافق حلكة السواد .

بيروت ـ خريف ١٩٧٨